

فقال شيامس : وما ذلك

فاجاب الحكيم : الاشياء ثلاثة . دفاع دفاع . ودفاع غير دفاع . وضرار غير دفاع ولا دفاع

قال شيامس : وما هو ذلك الضرار غير الدفاع ولا الدفاع

فاجاب الحكيم : ما أتى به الافراط من الدفاع غير الدفاع . صار ضرراً ولا يدفع ولا يدفع

الشيخ امين

ظاهر خير الله

ستأتي البقية

رؤيا صادقة

امنية عراقية

كنت ليلة خلعت اني في حديقة خناء وروضة فيحاء فيها اصناف الشجر والثر وازهر والطيور فأخذت اسرح الطرف في جوانبها الاربعة متمتما بما تشهيه الاقنص وتلذذ به الاعين ثم مشيت في طرفها المرشوشة بالماء العطر فرأيت كرسياً طويلاً فاستلقيت عليه مفكراً فيما مرّ عليّ فقلت : ما اسمذي اليوم بين هذه الاشجار النضرة والورود العطرة والطيور المترددة والمياه الجارية فا اطيب البقاء في حديقة ليس فيها من يزور او يفتاب ولا من يشجس فيفتقد ظمأً وعدواناً ثم سكت وقات في تسمي : ما اهنأ العيش في جنيبة ليس فيها من ينشك ويضحك منك ولا من يضرك بمغترباته او يقلبك بنامعها تمتع بهذه المناظر والالوان ولا تأسف على دنيا خدمتها فاهانتك وعمرتها فهدمتك وطلبها فردتك وتعبت لاجلها فاهلكتك دعه ومن يسكنها في ضلالهم يعمهون والنهم وطربهم يلهون وبكسلهم وبطالهم يشتغلون . يمشون كما تمشي البهائم ويموتون كما تموت . يفسرون الحياة بالاكل والشرب والتناسل فالهيات ولا يأسفون على وقت يمضي مرتبهم . ينتظرون الموت بالجدال والكفاح والمزامير والطيور ولا يحاذرون على صريرهم بالنقيل والقال . دع التلاقل لاربابها والجدال لاصحابه والنس معترك الحياة ثم مشيت بين الاشجار فرأيت شاباً جميلاً نظهر عليه دلائل الغنى والترف يتمايل في مشيته ويتلاعب بمعاكاته بيده ولكن ثيابه لم تكن تدل على انه

من أهل هذه الايام. لانه كان يلبس قلنسوة فارسية وطيلساناً مزركشاً وسراويلاً
ظالي الثمن وفوق كل ذلك ذرّاعة سوداء. فدنوت منه وسلمت عليه فاجابني بحجاب
يدل على الكبرياء حقيقة والتواضع ظاهراً ومدّ الي يده تكريماً فقبضت على يده
قارة ناعمة تدل على ان صاحبها لم يمش الا في الرخاء والهناء . ثم تفضل عليّ
فأثنى عن صحتي وحالي وعن الامور التي سببت مجيئي الى هذه الحديقة فقلت له :
« لم ازل اذكر في ذلك ... » فلم يلح عليّ وانتقل الى موضوع آخر ثم دار بيننا
الحديث في مواضع مختلفة فرأيتني يكرر كلمات طالما سمعتها من اولاد الاغنياء .
وهي : ابي فرسي قصري جواري خدي كتي لبامي . فقلت لا فرق بين المصريين
ثم سألتني هل انا محتاج الى الراحة وهل اريد الجلوس في غرفة تشرف على
الحديقة من جهة وعلى نهر يخرق المدينة من اخرى قلت نعم . ولما استقر بنا الجلوس
وشربنا ما قدم لنا من المرطبات سألتني عن اسم صاحب هذه الحديقة الزاهرة
فقال وعلى وجه ابتسامة الفخر والمزّة : « هذه احدي حدائق ابي وليت
احسبها . » فقلت : « ادامها الله لكم وتمتع بها . » فضحك مستغرباً وقال :
« انها لا تليق بكلّ ذلك » فكتّ وادرت وجهي شطر النهر فرأيت القوارب
تخرق وفيها انا من ازياء غريبة لا تشابه ازياء العصر الحالي فقلت : « ما اسم هذه
المدينة حفظك الله » فاستغرب ذلك مني وقال : « ألا تدري ما اسمها وانت تعيش
فيها » فقلت : « لا ! » قال : « لنصعد الى السطح فأريك المدينة باجمعها لملك
تعرفها بعدئذ » فصعد الى سطح حال مفروش بالطابق فرأيتنا تحتنا مدينة طامرة
يخرقها نهر عليه ثلاثة جسور وهناك المآذن العالية والبنيات الفخمة والقصور
الشامخة تكاد تناطح السماء

رأيت في الضفة اليسرى من النهر نهراً صغاراً تجري اليه فقلت لصاحبي :
« ما اسماء هذه الانهار ؟ » فقال : « هي من الشمال الى الجنوب : نهر الفضل
ونهر جعفر ونهر موسى ونهر العلي . » ثم رأيت في الضفة اليمنى نهراً سماه
صاحبي : نهر الصراة وهو ينقسم الى فرعين يدفع الاول بقرب الجسر الاعلى
والثاني بقرب الجسر الاسفل . وكذلك رأيت نهراً آخر اسمه نهر عيسى يشعب
شعباً تسمى باسماء مختلفة هي من الشمال الى الجنوب : نهر البرازين ونهر الدجاج
ونهر طابق ونهر الكلاب . وقد اخذ صاحبي يسرد اسماء هذه الانهر ويدلني على

مواقعها ولا ينسى الإشارة الى قصور والده وحدثته فقد رأيتُ يدلني على بعض المواقع فيقول : وهذا أيضاً قصر ابي . وذلك البيت أيضاً من بيوت والدي . او ترى ذلك البستان انه ملك ابي فقلت لا فرق بين المصريين

ثم ادعشتني عمارة القصور التي رأيتها فسألته عن اسمائها فقال : « اما القصور التي على الشاطئ الايسر من النهر فهي من الشمال الى الجنوب : قصر موسى وقصر الفردوس وقصر التاج (١) وقصر جعفر البرمكي — وهذه واقعة على النهر في داخل المدينة : قصر المعتصم وقصر الامين . وعلى الشاطئ الايمن : قصر الحرم وقصر الخلد ودارالقرار (قصر زيدة) ودارعيسى — وفي الداخل : قصر زيدة ودار الرقيق وغيرها . فعرفت اذ ذلك اني في بغداد العباسية ولكني لم اظهر له اني منها حتى يتم حديثه باجمعه . . . ثم قلت له : « وما هذه البناية المستديرة امامي » فقال : « هذه مدينة المنصور التي بناها لنفسه واعلم سنة ١٤٦ هـ (اي ٢٦٣ م) واحاطها بسورين وفتح لها اربعة ابواب متقابلة سمي الباب الذي ينظر الى الجسر المتوسط بباب خراسان والباب الذي يقابله بباب الكوفة والباب الذي يكون نحو الجنوب بباب البصرة وما يقابله بباب الشام . وقد بنى المنصور في وسط هذه المدينة قصره المسمى بقصر الذهب او القبة الخضراء ومسجده المسمى بجامع المنصور وغير ذلك من الابنية التي تعود الى دواوين الحكومة ومصالحها . وقد روى المؤرخون ان المنصور انما بنى القبة الخضراء ليحول اذهان الناس عن الكعبة اليها ولكني لا اكد اصدق ذلك . وقد جعل المنصور حوالى مدينته قطاع لحاشيته ومواليه واتباعه . فهل عرفت هذه المدينة الآن . فقلت : « نعم هي بغداد عاصمة الخلافة العباسية التي ذاع ذكرها وشاع خبرها واتسع نطاقها وبلدت شأواً بعيداً من الرقي والتكامل فهل تعرف حضرتهكم متى بلدت معظم ممارتها بعد بنائها » فقال : « بلدت بغداد معظم ممارتها في ايام المأمون حتى امتدت اجنتها ووسايتها على بقعة قالوا ان مساحتها ٥٣٧٥٠ جريباً منها ٢١٧٥٠ جريباً في الجانب الشرقي و ٢٢٠٠٠ في الجانب

(١) يظن بعض المتصرفين ان قسماً من القبة الحالية التي كانت تسمى في عهد الاتراك (الطابوقة) هي من بناء قصر التاج (راجع كتاب خلاصة تاريخ العراق لحضرة الاب انتاس ماري الكرمل صفة ١٤٧)

الغربي (فتكون مساحة بغداد كلها ١٦٠٠ فدان مصري) — وهو شيء كثير كما لا يخفى . ولوقرات تاريخ الخطيب البغدادي رأيتُه يقول : « انها اربعون مدينة وان الحمامات بلغ عددها في أيام المأمون ٦٥٠٠٠ حمام » وقد ترى في هذا القول مبالغه إلا أنه يدل على كثرة العمران وسعة المدينة في تلك الايام . فهذه هي بغداد في ايام عزها وسطورتها وقد أراها اليوم كما أراها غيري سائرة الى الانحطاط والزوال — شأن كل موجود ، فقات في نفسي : « ماذا كان يقول لو رآها في هذه الايام »

ثم قلت له : « اعرف يا سيدي من اية البلاد انا » فقال : « لا والله وقد احب ان اعرف ذلك » فقلت له « انا من اهل هذه المدينة ولكن بمذ عشرة قرون ! » فقال وعلى نفرد ابتسامة العارف : « عجيب وكيف هي الآن » فذرفت عيناى دموعاً تحدرت على وجنتي ولم استطع اخفاء العبرات والذفرات . فقال « لماذا تبكي يا اخي ولم اسألك شيئاً يؤذيك ، فقلت له « ابكي يا مولاي على عهد سلف وعز زال ورقى تبدل بالانحطاط . ايه يا بغداد العزيزة ويا ام المدائن وجمع العلماء والشعراء كانت عنادل العلم تفرده على ابناء مدارسك وانوار المرفأ تنلأ في معاهدك ومعالمك وكانت قصورك وربوعك تشهد على عظمتك . واهلك وشيمتك يدلان على فضلك وكرمك فإين تلك الدور والقصور واین ذلك الوقت وتلك العصور ساحلك الله يا بغداد تركت اولادك في القرن العشرين قرن المدنية والنور قرن الحروب والنور بالمأمول قرن الارتقاء والبروج تآهين في ظلمات الفقر والجهل والبؤس والشقاء . ان بيوتك الآن لا تسع اهلك وقد يتهاك عليها بنوك فإين سمك السابقة وانك لتضيقين بنا ذوعاً الآن فإين عمارتك السابقة . وانت يا دجلة يا ناكرة المعروف تبحرين امامي جرياً مطرداً كأنك لا تبالين بما جرى فوقك وامامك من الحوادث والاهوال فني ولا تحمري فان لنا معك حساباً يجب ان تؤديه قبل ان تصلي البحر . لقد رأيت مدينة البابليين ثم سكت على فقراضهم وشاهدت عظمة العباسيين فلم تكتر في لما جرى عليهم . وهانت تضحكين جنلاً على ما ألم بنا من الجهل والفقر والبلاء . فني والصتي لتسمي انين عشرة قرون . فني واسمعي صراخ الف عام . فني واسمعي معاول الشقاق والنزاع تلعب في طامتك . فني وانظري نيران القن تشب في معالم بلدتك . فني

واسمعي خير انهار الدماء التي تنحدر اليك . ففي واسمعي عويل الاطفال الواصل اليك . ففي وانظري الكتب التي تلتق فيك . نعم ففي ولا تجري في وتأملي في وتذكرني الماضي والحاضر ايه يادجلة يا ناكرة المعروف . أتذكرين انك طالما حملت زوارق الانس والطرب وسفن الحرب والطعان وطالما فاضت عيونك بدموع الفرح والسرور فسقت ارضاً خصبة والبساتين حلالاً خضراء . أتذكرين انك كنت تحترقين مدينة يقف الملوك هيبة اذا ذكر اسم ملكها وتحمي الرؤوس اجلالاً اذا جاء ذكر علمائها وترتعد المفاصل خشية اذا ذكر جيشها وقوادها . أتذكرين انك كنت تهزئين بالظونة والتعز والسين وانك كنت لا ترين النيل لك مثيلاً فإين ذهبت سلطوتك وعظمتك وكيف تغير سلطانك وكبرياؤك

فيا ايها المستقبل المجهول ارفع عني الستار الاسود الذي اختفيت وراءه لأنظر اليك فأني في حاجة ال ما في خزائلك العديدة من الاسرار . سمعنا بالماضي وان لم نره وهانحن اولاء نشاهد الحاضر ولكن من يعرفنا بك ويطلعنا عليك ؟ أنت مثل الماضي . ام انت تشابه الحاضر ام لا تشبه الاثنيين . قل لي بحقك ماذا حفظت لبغداد من الاحزان والافراح وماذا سيعقب هذه الفترة القاسية من العادة والشفاء . افتشعل لحمه لينا فيتنفس صبحتنا . ام سنبقى تحت سيطرة الجهل قائلين انفسنا بانفسنا ، قطع كلامي — وكان ينصت الي بصبر وجلد — قائلاً :

« قد علمت بكل ما جرى على هذه المدينة من اصدقائي المنجمين والسيماويين ، فقلت له ودموعي لم تنقطع بمدد تدعوني واحداً منهم الآن فأكون لك من الشاكرين . » فنادى خادماً وامره بدعوة احد الشيوخ الماهرين في علم السيمياء فحضر بمدد بضع دقائق بعامة كبيرة ولحية طويلة وملايح تدل على حُصت ورياء وخفة . فسلم وجلس فقال له صاحبي : « ان صديقي هذا (وأشار الي) يريد ان تدله بعلمك وقد ترك على اجوبة بعض اسئلته انني سيوردها عليك . » فقال :

« لا حاجة الي ايرادها فقد عرفتها قبل ان ينطق بها . ذلك مما علمه ربي . وهذا هو الجواب ان اراد ، فقلت له « شكراً لك سيدي » ثم قال : « تريد ان تسمع جوابك بأذنك ام تراه بعينك ، فقلت « بعيني واذني ان امكن ذلك . » فنهض وقادني الى بقعة خالية بقرت تلك الحديقة فوضع انامي حالاً ستار مزرکش فيه اشكال غير مفهومة وحروف مقطعة ورموز مكتومة واسرار

قدسية فقلت « ما هذا » فقال « سأرفعه عنك واريك الجواب بصيتك ثم اسمعك اياه بأذنك » فصاح « ارفع التار يا غلام » . ولم يكن هناك احد فرُفع التار وظهر ورائه شيء كاد يذهلني وبأخذ بعقلي . فقلت باستغراب وتعجب « ماذا ارى وما هذه يا ترى . ارى قبة عالية من الذهب الابريز مرصعة بالجواهر الثمينة فأعج على قوام من فضة مذهبة يصعد اليها سلم من الأبنوس منقوش بالصدق والعماج واقف على اسطواناتين من المعجد المرصع بالدر والياقوت ارى اناساً مختلفي الشكل والزي يصعدون على السلم ليصلوا الى تلك القبة النادرة المثال وهم متفاوتون في الارتقاء على ذلك السلم . ولم يصل منهم احد حتى الآن . وكان امام اسفل درجة منه فادة تلتفت عيناً وشمالاً كأنها لا تبصر وتنادي من يقودها ويصعدها على هذا السلم العظيم فلا نجد غير صدى نداءها يتراجع الى اذنيها ثم صرخت : « ما هذه العجائب يا شيخ وماذا ارى الآن فوق الثرى » فقال « اسمع يا ولدي ان القبة المجيبة التي تراها هي قبة الارتقاء او غاية الكمال التي يسمى اليها كل مخلوق فلم يصلها منهم احد حتى الآن . وهؤلاء الناس هم قبائل الارض وكلهم يود الوصول اليها من هذا السلم الذي تراه . وهو واقف على اسطواناتين هما التربة والمال » . ثم سألت عن الفتاة التي كانت تلتفت وتستنيت فقال : « ادق منها بنفسك واسألها » فدنوت منها فاذا هي في غاية الحسن والنعيم الا انها كانت مكفوفة البصر رنة الشباب فلما سمعت وقع قدمي بقربها اجفلت ونادت بصوت يستجلب الرحمة والشفقة والاحسان « يا رجلاً خذ بيدي » ثم سكنت ونادت ثانية : « رجلك يا رجلاً خذ بيدي » ثم سكنت ونادت ثالثة : « مكفوفة ضعيفة تائهة يا رجلاً خذ بيدي » فتقدمت اليها وحاولت ان اقودها فاذا هي لا تقدر على المشي ثم اردت حملها على ذراعي فلم استطع فقات لهاه أليس لك اهل يساعدونك على الصعود » فقالت « اواه لا تسأل ان لي اولاداً طاقين قد سخط الله عليهم فتركهم في ضلالهم يسهون » فقلت « ومن هم اولادك يا ترى » فصاحت بي ناقرة « ان ذلك أنت احدم وتسال عنهم » فاستغربت ذلك في اول الامر ثم تذكرت انها (العراق) فصرخت بصوت اهتزت له ارجاء الحديقة قائلاً « الى أمكم ايها العراقيون » ونتهت من الصوت